سوسيولوجيا السلوك الجانح للطفل وفقا لنظرية الإحتواء

(تعاطي المخدرات أنموذجا)

The sociology of child delinquent behavior according to the containment theory (drug abuse as a model)

د.بتقة ليلى

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الملخص : جنوح الأحداث من المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تمس بنية المجتمع ونظامه بل هي سم يفتك به وينخر في هيكله ويحول دون تطوره، والمخدرات إحدى هذه الظواهر بل أسوء نموذج عن السلوك الجانح لانعكاساتها الواضحة للعيان على الطفل والمجتمع، والتي حاول علم الاجتماع تقديم العديد من المقاربات السوسيولوجية التي تفسرها من زوايا مختلفة، ومن خلال هذه الورقة البحثية اخترنا نظرية الإحتواء كمقاربة سوسيولوجية لفهم السلوك الجانح عند الطفل باعتبار تعاطي المخدرات كأقوى نموذج لهذا السلوك المنحرف.

الكلمات المفتاحية: جنوح الأحداث ، المخدرات، تعاطي المخدرات، الإدمان.

Abstract:

Juvenile delinquency is one of the serious social problems that affect the structure and system of society،Rather، it is a poison that destroys it and necrosis in its structure and prevents its development. And Drugs are the worst example of delinquent behavior because of its clearly visible repercussions on children and society, which sociology tried to provide many sociological approaches that Interpretation from different angles, and through this articale we have chosen the containment theory as a sociological approach to understanding child delinquent behavior by considering drug abuse as the strongest model for this deviant behavior.

Keywords: juvenile delinquency, drugs, drug use, addiction.

1.مقدمة:

تعد قضية جنوح الأحداث من القضايا الاجتماعية التي شغلت فكر المجتمع والباحثين بمختلف تخصصاتهم ،فهي من القضايا والمواضيع العابرة للتخصصات، كما أنها ذات صلة وطيدة بعمليتي التنشئة والضبط الاجتماعي، تتأثر بالعديد من العوامل الاجتماعية والنفسية التي تشكل قوة دافعة للسلوك الإنساني، وعلم الاجتماع على رأس هذه التخصصات التي حاولت تفسير السلوك الجانح للطفل أو ما يعرف بقضية جنوح الأحداث باعتباره سلوك غير سوي(منحرف)، من خلال العديد من المقاربات السوسيولوجية لهذا النمط من السلوك، الذي يهدد أمن واستقرار النظام الاجتماعي ككل انطلاقا من فكرة جانح اليوم مجرم الغد إن لم يلق التكفل والرعاية اللازمة لفهم هذا السلوك ومعرفة مسبباته الفعلية، إذ تشير تقارير المؤتمرات الدولية للوقاية من الجريمة إلى" أن مشكلة جنوح الأحداث تأتي في مقدمة المشكلات الاجتماعية التي تواجهها المجتمعات المعاصرة ، وتتضح خطورة جناح الأحداث في تعدد الجوانب المرتبطة بها ، وفي تعدد ألوان السلوك الجانح الذي يأتي به الجانحون ، وأثر ذلك على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والخلقية في المجتمع الذي يعيشون فيه".[1]

والسلوك الجانح يأخذ أشكال متعددة كالسرقة، السطو،الإعتداء على الآخرين،تعاطي المخدرات، هذه الأخيرة التي اتخذناها أنموذجا للسلوك الجانح عند الأطفال ومن خلال هذا المقال نحاول تفسيرها سوسيولوجيا وفقا لنظرية الإحتواء، لاعتبار هذه الظاهرة من المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي يتعدى أثرها وتنعكس على الطفل بشكل سلبي على كل المستويات الاجتماعية(العلاقات، الدراسة،الدور...الخ)، النفسية(التوازن النفسي وصورة الذات)، والصحية(التي تظهر بشكل واضح وخطير حين يصل الطفل لمرحلة الإدمان)، بالإضافة إلى إلى كونها عامل متعدي لفعل جنحة أخرى كالسرقة من باب توفير المخدر، الإعتداء لغياب العقل والإدراك السلوكي، وقد تصل به لارتكاب جريمة القتل؛ فهي إذن من الآفات الخطيرة والتي تعرف بالسم القاتل الذي يهدد أمن المجتمع وينذر بانهيار وحدته وتماسكه، كما تكمن خطورتها (تعاطي المخدرات) في كونها تتعلق بفئة هشة (الأحداث)، التي لاتملك من الحصانة والمقدرة والنضج النصيب الكثير لمواجهة هذه الظاهرة بمفردها.

ومن المقاربات السوسيولوجية التي فسرت السلوك الجانح عند الطفل والتي اعتمدناها في هذا المقال هي نظرية الإحتواء لصاحبها "ركلس"؛ والتي تعد من نظريات الضبط الاجتماعي ، التي تفترض أن السلوك المنحرف يزداد عندما يضعف الاحتواء الداخلي والخارجي، وهذا ماسنعرفه بالتفصيل لاحقا.

فمن خلال هذه المقال سنحاول معرفة كيف فسرت هذه النظرية السلوك الجانح (تعاطي المخدرات) عند الأطفال كمقاربة سوسيولوجية.

2.السياق المفاهيمي:

1.2.جنوح الأحداث:

نستطيع تعريفنا لظاهرة جنوح الأحداث كانحراف اجتماعي يمس فئة الأحداث يأخذ أشكالا مختلفة للسلوك غير السوي، فالحدث الجانح هو:" الحدث الذي ينحرف بسلوكه عن المعايير الإجتماعية السائدة بشكل كبير يؤدي إلى إلحاق الضرر بنفسه أو بمستقبل حياته أو بالمجتمع ذاته ".[2]

فكل سلوك لا يتوافق مع المعايير السائدة في المجتمع والعرف القائم تعد انحرافا، فقط كلمة الجنوح قد تأخذ بعدا قانونيا بكونها تتعلق بفئة سنية حديثة لا تصل لدرجة العقوبة كفعل الجريمة، وإنما تحتاج للرعاية والتأهيل أو مايعرف بمصطلح إعادة التربية.

2.2. المخدرات:

- **التعريف اللغوي:**

كلمة المخدرات مشتقة أصلا من الفعل خدر ومصدره التخدير، ويعني (الستر) ويقال تخدر الرجل أو المرأة أي استتر أو استترت، ويقال يوم خدر (يعني مليء بالسحاب الأسود،وليلة خدرة يعني الليل شديد الظلام)، والخدر: المكان المظلم الغامض، ويقال أن المخدر هو الفتور والكسل الذي يعتري شارب الخمر في ابتداء السكر، أو أنها الحالة التي يتسبب عنها الكسل والسكون والاسترخاء والضعف والنعاس والثقل في الأعضاء الذي يعتري متعاطي المخدرات كما أنها تعطل الجسم عن أداء وظائفه وتعطل الإحساس والشعور.[3]

- **التعريف العلمي:**

هي كل العقاقير المستخلصة من النباتات أو الحيوانات أو مشتقاتها، أومركب من المركبات الكيماوية والمشروبات التي تؤثر سلبا أو إيجابا على الكائن الحي بالإضافة إلى الأدوية الممنوعة وأدوية العلاج

المسموحة، وهذه العقاقير تغير حالة الإنسان المزاجية، ويعتمد عليها الإنسان في حياته بسبب خاصيتها المخدرة، وليس بسبب ضرورة علاج المرضى الذي يستوجب تكرار استعمال دواء محدد كمرضى السكري وأدوية خفض الضغط الدموي ، وهذه المواد قد تكون مهلوسة او منبهة للأعصاب مثل الكوكايين، أو مثبطة لها مثل الباربيورات (المنومات) والأفيون ومشتقاته، وهي تسكن الألم أو تلغيه نهائيا وتسبب النعاس أو النوم أو غياب الوعي الكامل.[4]

- **تعريف منظمة الصحة العالمية W.H.O للمخدرات:**

المخدرات هي مواد ذو قابلية للتفاعل مع الكائن الحي، بحيث يؤدي ذلك التفاعل إلى الاعتماد النفسي أو العضوي أو لكليهما، وقد تستعمل هذه المواد لأغراض طبية دون أن تؤدي إلى حدوث هذا التفاعل بالضرورة، وخواص حالة الاعتماد على المواد المخدرة تختلف حسب نوع هذه المادة المستعملة، فهناك ما يسبب التبعية الشديدة للجهاز العصبي أو الهبوط أو اختلال الإدراك، والانفعال والتفكير والسلوك والوظائف الحركية. بحيث تؤدي تحت ظروف معينة من التعاطي إلى المشاكل التي تضر بحالة الفرد والمجتمع الصحية.[5]

3.2. تعاطي المخدرات:

التعاطي هو:" أن يسعى الفرد للحصول على المخدر، وإذا ترك الشخص المخدر فقد تصيبه بعض الأضرار من جراء ذلك، إلا انه لا يصل إلى مرحلة الاعتماد، على الرغم من أن التعاطي قد يحدث خللا في بعض الوظائف الحياتية للمتعاطي".[6]

4.2. الإدمان:

الإدمان هو:" تكرار تعاطي المواد المخدرة الطبيعية (أصلها نباتي) أو المصنعة(مواد نباتية، تم تصنيعها)، أو نفسية (أدوية ذات تأثير نفسي)، وتعود الشخص عليها لدرجة الاعتماد، بمعنى آخر صعوبة الإقلاع عنها مع حاجة الجسم بين فترة وأخرى إلى زيادة الجرعة، فتصبح حياة المدمن تحت سيطرة هذه المواد، وفي حالة الإقلاع(الامتناع) تظهر على المدمن أعراض إنسحابية مختلفة (عجز في الحركة ، مغص،عدم القدرة على التركيز ، تشنجات عضلية...الخ)".[7]

فالفرق بين التعاطي والإدمان يتعلق بجزئيتي التكرار وشدة التأثر أو الاعتماد.

3. مدخل لنظرية الإحتواء وتفسيرها لباثولوجيا الانحراف:

اهتم علم الاجتماع بتفسير السلوك الإنساني السوي وغير السوي(الجانح أو المنحرف)، وتقديم العديد من المقاربات النظرية السوسيولوجية للسلوك المنحرف، من خلال طرق التحليل التجريبي والنقدي، بين المستويين المايكرو Micro؛ مثل المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد، وعلى المستوى الكلي Macro ، كالأنظمة الثقافية والاقتصادية والسياسية، ومن المقاربات النظرية التي فسرت السلوك المنحرف كتعاطي المخدرات نجد نظرية الاحتواء Containment theory التي تعد من نظريات الضبط الاجتماعي التي تركز على التضامن الاجتماعي في الضبط الاجتماعي، وأن هناك العديد من العوامل الاجتماعية والنفسية التي تشكل قوة دافعة للسلوك الإنساني، حيث لم تغفل نظرية الاحتواء عن المتغيرات النفسية في تفسير السلوك المنحرف؛ فقد أكد **ركلس** أن الفرد يتعرض لنوعين من الضغوط هما :

أولا-الضغوط الداخلية وتمثل الرغبات النفسية الميول التي تدفع الفرد نحو السلوك الجانح وتشمل العدوان والإحباط والغضب والتوتر والحاجة والثورة والصراع العقلي الآني إلى الإشباع .

ثانيا-الضغوط الخارجية: وتمثل الضغوط الاجتماعية والشروط الحياتية الصعبة كالفقر والحرمان والبطالة، أما عوامل الجذب الخارجية تشمل جماعة الرفاق المنحرفين والعضوية في ثقافات فرعية للمنحرفين والفرص غير المشروعة والصور الإعلامية.

وهو مايمثله الشكل التالي:

شكل1.عنصري الإحتواء في السلوك الانساني

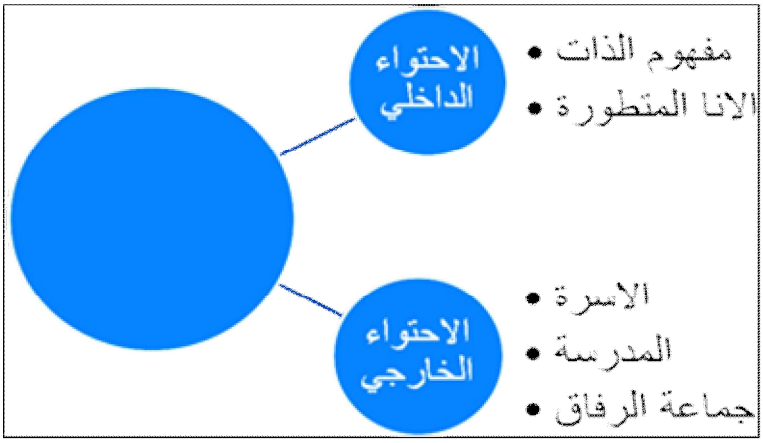

المصدر:من إعداد الباحثة

فحسب ركلس Walter c. Reckles الإحتواؤ الداخلي يتكون من المكونات الداخلية للذات(الذات الإيجابية، توجيه الهدف، تحمل الإحباط، الاحتفاظ بالمعيار)، فحسب ركلس هذا النوع من الاحتواء وما أسماه بعملية الضبط الداخلي يلعب دورا مهما في الامتناع عن السلوك المنحرف، فالأفراد الذين لديهم تصور إيجابي لذواتهم أقل إقبالا عن الانحراف، وهم على قدر عال من المسؤولية، ويتم التفاعل الأسري لديهم بصورة نافعة ومحببة، عكس الذين لديهم تصور منخفض للذات، ويشير توجيه الهدف إلى توجيه الشخص نحو الأهداف الموافق عليها اجتماعيا، أما تحمل الإحباط فهو القدرة على تحمل الضغوط والمصائب والخيبة والفشل دون اللجوء للانحراف، والاحتفاظ بالمعيار هو الاخلاص والقبول والاحترام والتوحد مع الاعتراف بصحة المعايير والقواعد والقيم والدفاع عنها.[8]

في حين يتعلق الاحتواء الخارجي أو مايعرف بعملية الضبط الخارجي بالمجموعات الأولية؛ أي مؤسسات التنشئة الأولية التي تعمل على تطبيع الفرد جملة المعايير والقواعد المقبولة اجتماعيا، حتى يتكون للفرد سلوك اجتماعي مقبول اجتماعيا ويتسق والعرف والنظام العام للمجتمع.

وهنا هذه المؤسسات تعمل من خلال أساليب التنشئة الاجتماعية السليمة على مراعاة:

- ✓ خصوصية المجتمع.
- ✓ طبيعة الفرد المنشأ.
- ✓ طبيعة المواقف الاجتماعية المختلفة.
- ✓ طبيعة الموضوع المراد تنشئة الفرد عليه.

فمن خلال هذه النظرية يتوقف تأثير الانحراف على الفرد على عمليتي الاحتواء الداخلي والخارجي للفرد، فكلما كان الاحتواء الداخلي للفرد قوي كلما كان تأثير الجماعات المنحرفة على سلوك الفرد ضعيف، فالفرد ذو التكوين الفردي السليم والمشبع ذاتيا من خلال الجماعات الأولية وعلى رأسها الأسرة بجملة المعايير والقواعد التي تغرس فيه كيفية مواجهة الضغوطات والإحباطات المختلفة وكيفية تجاوز الفشل دون اللجوء لفعل تعويضي سلبي، والقدرة على تحمل المسؤولية في كل الحالات، هو فرد قد نشأ في بيئة سوية عززت عنده الذات الإيجابية، وقللت عنده فرص التعرض للانحراف.

فتحقيق حاجات الطفل عملية مهمة جدا في السياق العلائقي، وحاجات الفرد لا تتعلق فقط بالجانب البيولوجي مثلما تفعل جل العائلات ظنا منها للأسف أنَّ عملية التربية تتعلق بتوفير الحاجات الفسيولوجية بالدرجة الأولى، وفي هذا الصدد نجد أبراهام ماسلو قد وضع هرم للحاجات الانسانية التي تنمي وتشكل شخصية الطفل والتفريط فيها أو التقصير في وجودها أو في طريقة إشباعها له الأثر البالغ في حياة الفرد مستقبلا، والشكل التالي يقدم هذا الهرم :

الشكل 02:هرم الحاجات لأبراهام ماسلو

المصدر: https:// wikipedia.org

إذن هناك علاقة عكسية بين الاحتواء وبين الجنوح للانحراف كلما قوي الاحتواء خاصة الداخلي كلما قل التعرض للانحراف، وهنا يجب التنويه لأهمية جماعات الأصدقاء(كضبط خارجي) وتأثيرها القوي خاصة في المراحل الأولى للطفولة، باعتبار خصائص المرحلة فهنا الطفل يكون تأثره بأقرانه كبير لتقارب المرحلة السنية ولتجانس الاهتمامات والميول ، ولقضاء الطفل جل وقته معهم، ولهذا نجد ضرورة التنويه في هذه المرحلة على أهمية انتقاؤ المصاحبين للطفل بدل المراقبة اللصيقة، فالمقولة الشهيرة "قلي من صديقك أقول لك من أنت تنطبق بشكل كبير على هذه المرحلة(مرحلة الطفولة).

واليوم انتشار تعاطي المخدرات في وسط الأحداث أصبح موجود بشكل مريب حتى في المدارس التي تحولت من فضاء للتعليم والتربية إلى فضاء للمتاجرة بمختلف أنواع السموم، فحسب إحصائيات الديوان الوطني

للمخدرات وإدمانها فقد بلغ عدد المتعاطين إلى 54 ألف تلميذ سنة 2016 ، فكثرة التعرض للحبوب المهلوسة التي أصبحت تأخذ أشكال الحلوى وتوزع على الأطفال أمام مداخل المدارس والمتوسطات، حتى يقع الطفل فريسة لها ويصبح مدمنا عليها في ظل غياب الاحتواء الداخلي والخارجي، وبالتحديد دور المؤسسات الأولية وهنا المدرسة تلعب دور كبير في التوعية بمخاطر تعاطي المخدرات وأثرها على التحصيل الدراسي للطفل وعلى تكيفه الاجتماعي، كما لا يتوقف دورها عند التوعية فحسب بل تشترك مع الأسرة في الملاحظة والمراقبة الشديدة خاصة عند وجود علامات التعاطي عند الطفل، فحسب ركلس الطفل ذو الشخصية الهشة والذات المنخفضة سهل جدا أن يقع فريسة تعاطي المخدرات من خلال تأثير أقرانه المتعاطين لها وتصويرهم للمخدرات التي تأتي على شكل سجائر كعلامة من علامات النضج والبلوغ، ويصبح تناولها من باب التباهي والاستقواء.

وبالتأكيد على جزئية الاحتواء الداخلي في مواجهة تعاطي المخدرات عند الطفل المتمثل في نضج الذات والأنا المتطورة، هنا يأتي التنويه لضرورة الاهتمام بعنصري التقليد والمحاكاة في التربية، فالطفل يتأثر بالنموذج الذي يحاكيه ويقلده والذي يسهم في تقوية الاحتواء الداخلي عنده، وبالرجوع للتاريخ الإسلامي نجد قادة للجيوش في سن صغيرة جدا كالصحابي الجليل أسامة بن زيد، ونجد من يتصدر المجالس ويعي مايفعله ويتحمل مسؤولية نجاحه أو فشله وكلها عوامل تدل أنَّ الاحتواء الداخلي قد فعل فعله، وبالتالي عملية الضبط الداخلي المتعلقة بتكوين الضمير الحي في نفوس الناشئة تعد أفضل وسيلة لمواجهة كل الانحرافات بما فيها تعاطي المخدرات.

4.خاتمة:

اليوم مجتمعاتنا تعيش تغيرات كبيرة أثرت على عمل مؤسسات التنشة الاجتماعية الأولية كالأسرة والمدرسة، وأثقلت كاهلهم بمهام جديدة في ظل التطور الحاصل، فطفل اليوم لم يعد كطفل الأمس، ووسائل التربية والتنشئة الاجتماعية القديمة لم تعد تجد اليوم، والتركيز على أسلوب واحد دون التنويع لن يؤتي ثماره مع طفل اليوم، لهذا ووفقا لنظرية الاحتواء كمقاربة سوسيولوجية التي فسرت لنا انحراف الطفل وكيف يتم، لابد من تكامل الجهود لرعاية الناشئة والوصول بهم إلى بر الأمان، ولن يتأت ذلك إلا في ظل وجود منظومة قيمية صارمة تطبع في عقول الناشئة من الصغر حتى تصبح معيارا يوجه سلوكاتهم فيما بعد، العقاب

وانتهاج سياسة الترهيب لن يحقق شي، فكل ممنوع مرغوب فيه، لكن الإحتواء هو السبيل الوحيد لتفادي الانحراف وخلق شخصية سوية، وتجنب مضاعفاته في حالة الاكتشاف.

5.قائمة الهوامش:

[1] - السيد رمضان وآخرون: إنحراف الصغار وجرائم الكبار ، المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية ،2002.ص.13.

[2] -عدنان الدوري: الأحداث السبب و المشكلة، ، ذات السلاسل، الكويت، 1984،ص2.

[3] - ابن منظور: لسان العرب، مجلد 4، دار صادر، بيروت، 1993.ص.230.

[4] - فوزي الطرابلسي: المعجم العلمي للجريمة. دار الكتب الوطنية، بن غازي،ليبيا.1991.ص.36.

[5] - عفاف محمد عبد المنعم: الإدمان دراسة نفسية لأسبابه ونتائجه ،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، 1999.ص.48.

[6] - محمد حسن غانم: الإدمان أضراره نظرياته تفسيره علاجه، دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة، 2004.ص.30.

[7] - فتحي دردار: إدمان التدخين الخمر المخدرات، الجزائر، 2000.ص.8.

[8] -مصلح الصالح:الضبط الاجتماعي،ط1،الوراق للنشر والتوزيع،الأردن،2004.ص.131،130.